النجم الآفل

الشاعر م. ع. الهمشري

للأستاذ صالح جودت

كان أول شاعر عرفته، وكنت أول شاعر عرفه. وفى الحق أن أحداً من أهل الأدب لم يكن يعرفنا آنذاك، إذ كنا نترجح فى بكور العمر بين العقدين الأول والثانى من العمر.

كان هذا منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً.

وهمس الشيطان فى آذان أصحاب الصحف أننا دون العشرين، فلم يأبهوا لشعرنا، فاتخذ طريقه إلى السلال، فاتفقنا عندئذ، أو قل حدث بغير ما اتفاق، أن أكون قارئه الوحيد، على أن يكون قارئى الوحيد.

كان هذا فى ظلال المدرسة بالمنصورة. والمنصورة أرض طيبة تنبت الشعر كما تنبت الجمال، ومنها خرج هيكل، وأحمد أمين، وعبد الله عنان، والزيات، ومحمد عوض محمد، وخلدون، وإبراهيم رمزي، وإبراهيم ناجي، وعلى محمود طه، وإسماعيل مظهر، ومنصور فهمي، والأسمر وغيرهم وغيرهم، حتى لقد ارتأينا مرة أن نؤسس ندوة تجمع شمل أدباء المنصورة، فما كدنا نجد فى مصر أديباً إلا منها، أو يمت إليها بعاطفة!

هناك، فى بكور اليفاعة، عرفت «محمد عثمان الهمشري» كما نعاه النعاة، أو «محمد عبد المعطى الهمشري» مكا تسجل الحقيقة، أو «م. ع. الهمشري» كما عرفه قراؤه.

وللتسمية الأخيرة قصة، فقد كان الهمشرى منذ فجر صباه مجنون الولع بقراءة الأدب الإنجليزي، ولاسيما ما كان منه لشعراء الشباب، الذين ماتوا فى ميعة شبابهم، مثل شلى وكيتس وبيرون، فتأمل عجائب القضاء!

هؤلاء كانوا أساتذته الذين أحبهم وتتلمذ عليهم، وتأثر بهم وترجم لهم، واتخذهم قدوة فى الحياة، ثم اتخذهم قدوة فى الموت!

وجاءنى يوماً يقول: ما رأيك فى اسمى الأوسط، أعنى عبد المعطي؟ قلت: لا

بأس به. قال: بل أود أن أستبدله أو أمحوه. قلت: ولم؟ قال: لأن من اسمه عبد المعطى لا يكون شاعراً!

ضحكت يومئذ من هذه الفكرة الغريبة، ولكنى رأيته على صواب، ولاسيما إذ عرفته وعرفت من أمره أنه لا يضع الكلمة فى شعره إلا إذا أحس لها جرساً موسيقياً عميقاً فى نفسه.

وكان يوم، وجاء يطلعنى على قصيدة ترجمها عن توماى جراي، هى المرثية الخالدة لمقبرة القرية، فوجدتها ممهورة بتوقيع «م. ع. الهمشري». وقال: بمثل هذا كان يوقع أستاذى P. B. Shelley وأصحابه الآخرون.

ومنذ يومئذ لم يعرف القراء صاحبى بغير اسمه الجديد.

وكنا – الهمشرى وأنا – لا نكاد نفترق إلا مقدار ما تغمض الجفون، وبقينا على هذا العهد حتى أغمض جفنيه إغماضة لا صحوة منها، فافترقنا مكرهين.

جاء ناعيه ينعاه إلى فى صباح يوم حزين. وإذا فوجئ المرء بصدمة بكى، ولكنه إذا جن فى صدمة ابتسم، وهكذا ابتسمت، وقضيت سحابة النهار لا أبرح مكاني، قضيتها أبتسم وأجيل عينى فى صور الماضى من يفاعة وصبا وشباب، أستعرضها كأنها لم تزل بعد حية، وكأنما نحن يومئذ قيد هنيهات من عهد خطر عليه أكثر من عشر سنوات.

ذكرت المدرسة وملاعبها ومغانيها، وكيف كنا إذا اختصمنا، الهمشرى وأنا – وكثيراً ما كنا نختصم فى عاطفة كانت شركة بيننا – جعلنا من المدرسة حلقتين تسيران بشعره وبشعري، حتى خلقنا فى شباب المنصورة آنذاك جيلاً يحسن تذوق الأدب ويستمرئ الطيب منه.

وكبرت الأيام عامين، فكبرنا معها، وكان هذا منذ عشر سنوات تقريباً. وعندئذ حدث حدث أعاد إلى الذاكرة ما كتبه عن الهمشرى إثر وفاته، الأديب الوفى الأستاذ محمد لطفى جمعة.

فى ذلك العهد، أنشأ الأستاذ محمد لطفى جمعة فصولاً حزينة عن شاعر انتحر فى باكورة شبابه، هو المرحوم أحمد العاصي، وترجم له، وتحدث عنه، وروى من شعره، فأقبلنا – الهمشرى وأنا – نقرأ هذه الفصول فى صحيفة «البلاغ» على ما أذكر، ونبكى هذا الشاعر الذى لم نعرفه بدموع محرقة متلفة، وحفظنا يومئذ ما وصلنا من

شعره.

ثم قال صاحبي: ألا قل لي، ألو متنا كما مات هذا الشاعر أفنجد من ينعانا ويرثينا فى الناس؟ قلت: وهل يعرفنا أحد من أهل الأدب حتى ينعانا أو يرثينا؟ فأطرق وقال فى كآبة: صدقت. إذاً فلنرث نفسينا، أنت ترثينى وأنا أرثيك.

وافترقنا يومئذ، وعدت إلى البيت، ولبثت أحاول أن أرثيه، فرسمت صورته فى ذهني، وتأملتها، تأملت ذلك الوجه الذى يتدفق فيه احمرار الحياة، وذلك الصدر المرتفع والجسد الطويل العريض الهاتف بقوة الشباب، يسير فى وسط الطريق لا على إفريزيه، وعلى صدره وردة حمرا لا تريم.

يطأ اليأس باعتداد الأماني ... ويذل الزمان بالكبرياء

فضحكت مما أحاول، وقلت: ما أحاول إلا سخافة، أهذا يمكن أن يموت؟

والتقينا فى صبيحة اليوم التالي، فقال: أين مرثيتك؟ فقلت له ضاحكاً: يا محمد، إنك آخر من يخطر ببال الموت.

ولكن الأيام كذبت حدسي، فكان هو أول من خطر ببال الموت!

قال: أما أنا، فقد رثيتك فإليك.

وأذكر يومئذ أنه أرسل هذه القصيدة إلى إحدى الصحف، مع مقدمة يقول فيها: «كان فلان شاعراً فى مقتبل صباه، وهب قلبه لفتاة، ثم مات، وأوصانى قبيل موته أن أنقش هذه الأبيات على حجر قبره، لعل ليلاه تمر لتذرف عليه دمعة عند الغروب فتقرؤها...».

على أن القصيدة لحقت بأخوات لها من قبل فلم تنشر، ولا زلت أذكر منها ما يغلب على الذاكرة أن يكون:

أيها الساري، تمهل فى خطاك ... إن فى القبر فؤاداً ما سلاك
ودع الأحلام فى رقدته ... والأماني، ولم يذكر سواك
وإذا ناديته فى قبره ... هب فى القبر مجيباً لنداك
ليس يبغى أن يرى الجنة في ... نفخة الصور، ولكن أن يراك
وضريحى بين أشجار الأراك ... فتعال، واسقه على أراك
إن اتخذت اليوم غيرى فى الهوى ... فأنا للآن لم أعشق سواك
هاتف فى الموت يدعونى كما ... كان فى الدنيا، إلى وكر هواك

وأعود الآن إلى حديث فصول الأديب الوفي، الأستاذ محمد لطفى جمعة، عن الشاعر المنتحر، أحمد العاصي.

تأثرنا لما كتب، وكان ما كان من أمر رثاء صاحبى لي، وبقى شبح العاصى يطاردنا ويلاحقنا فى كل لحظة وكل بقعة. وإذا بالهمشرى يستخفى علي، وإذا بى أستخفى عليه، وإذا بكل منا يعود إلى صاحبه بعد يومين فيطالعه بقصيدة فى رثاء العاصي، من نفس البحر ونفس القافية، ولعل مبعث هذا التوافق قصيدة للعاصى من الشاكلة عينها.

قلت:

يـا أيهـا اليـائس مـن دهـره ... خطـم الآمـال فى فجـره
يـا من صبا للموت رغم الصبى ... أواه للشاعر من سحره
يـا مـن رأى فى الدهر مـا ضـاره ... ويـل لـنفس الحـر مـن ضـيره
قـل للـذى يرتـاب فى لؤمـه ... لقـد تـدعى الشك فى أمـره

وقال الهمشرى قصيدة لا يحضرنى إلا بعض مطلعها وهو وحده زعيم بإقناع القارئ أن الهمشرى تفوق وأجاد، وجنح إلى نزعة فلسفية سايرت شعره إلى النهاية.

قال:

أفزعـه الشوق إلى وكـره ... وحـن فى الليـل إلى فجـره
وهـب مـذعوراً يناجي الـردى ... وينـشد المخبـوء مـن سره

ولست أدرى أية نفثة من السحر كانت فى هاتين القصيدتين، فقد بعثنا بهما إلى الصحف، فتفتحت لنا أبواب السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى مرة واحدة ومنذ يومئذ بدأنا نعرف الأدباء ويعرفوننا، وكان أول من عرفنا منهم، هما الشاعران على محمود طه وإبراهيم ناجي، وقد كانا عهدئذ فى عنفوان الشباب بالمنصورة، وكانا مثلاً لنا، لا يفترقان إلا غمض الليل.

هنا بدأنا نشق طريقنا فى الأدب المنشور، وبدأت شاعرية الهمشرى تتألق، وتخرج ملحمته «شاطئ الأعراف» وقصائده الرائعة وعلى رأسها «النارنجة الذابلة» و«إلى جنا الفاتنة فى مدينة الأحلام» و«مشعلة النوتي» وغيرها.

وهنا يجب أن يسكت الصديق، الذى هو أنا، ليتكلم نقاد الأدب ومؤرخوه المنصفون، وما أنا من هؤلاء ولا من أولئك.

الشاعر محمد الهمشرى تحت المصباح

روح ذاهل عن مادية الحياة، كثير الانشغال بعوالم الخيال السحيقة العذبة الطاهرة الجمال. وشاعرية متوقدة ناضجة تؤدى رسالتها القويمة فى غير ما جلبة أو ضوضاء، كأنما تعتقد أن الإعلان عن فضلها عار ومنقصة فى وقت يتهافت فيه كل دعى على الإعلان عن ذاته..! عرفت محمد الهمشرى لسنين خلت طالباً بمدرسة المنصورة الثانوية، وشاعراً مبدعاً على حداثة سنه حينذاك، وقرأت له قصيدته، بل ملحمته الرائعة، «شاطئ الأعراف» التى تعتبر بحق عملاً يستأهل الخلود! ويوقفنا على مدى هذه الشاعرية الخالقة الجبارة التى تملكت روح هذا الشاب النابغة.

ومحمد الهمشرى لا يزال فى أول شبابه، والذى قرأ له «شاطئ الأعراف» و«مشعلة النوتي» و«أحلام النارنجة الذابلة» لا يتردد فى اعتقاد أنه بإذن الله سينفح الشعر العربى بروائع أخرى كثيرة تهز الدوائر الأدبية فى العالم العربي، بل فى العالم بأسره..!

وهو شاب واسع الاطلاع على الأدب العربي، كما أنه يوالى بانتظام دراسة الشعر الإنجليزى والفرنسي، ولقد قرأ فيهما الكثير من روائع الآثار.. وهو يقدس الأدب تقديساً ولا يهمل شأن عمله الفنى على الإطلاق، لذلك لا تراه حينما ينظم قصيدة، ينظمها تزجية لفراغ أو تسلية، وإنما هو يسكب روحه سكباً،ويريق دماء قلبه فى قصيدته، وينطوى على نفسه أياماً عديدة يعالج نظمها حتى يخرج بها نقية لامعة ناضجة، وعندئذ تؤدى رسالتها بإيمان وقوة وتنفذ إلى صميم الأفئدة من غير مجهود أو إرهاق ذهني.

ويكاد ينفرد محمد الهمشرى بشخصية خاصة ذات ميسم خاص فى شعره القوى الرائع. ثم هو يمثل فى شعره المبدأ الرمزى أصدق تمثيل، وهو يدعو لهذا المذهب مخلصاً لا ينى ولا يفتر، ولقد كسب كثيراً من المعجبين والمحبين لشعره ومذهبه الذى يروج له.

وقد يعجب المرء حينما يسمع أن محمد الهمشرى يقرأ، خلا الشعر والقصة، آراء جليلة فى الاقتصاد والتعاون، ويكتب فى هذين الموضوعين كتابة قيمة متينة،

ولكن هذا العجب يزول حينما يعلم المرء أن العبقرية لابد أن تكون واسعة المناحى شاملة لكل شيء. وهذا (جوتة) شاعر ألمانيا الخالد كان شاعراً وقصصياً وكيميائياً.. وطبيباً..

ويميل محمد الهمشرى فى شعره إلى الناحية الحزينة القاتمة. ولعل ذلك راجع إلى الآلام النفسية التى اعتورت حياة شاعرنا، وأحسب أنه يكاد ينفرد بإجادة اللون القاتم فى الشعر العصري.

ونفس محمد الهمشرى نفس خيرة محبة للناس والأشياء بالرغم من نظرة التشاؤم التى تطغى عليها.. وخلاصة القول أن محمداً الهمشرى يمثل شخصية الفنان الأصيل تمام التمثيل..!! وهو فى حياته الخاصة يميل إلى العزلة وينفر من الاختلاط بالناس والانغماس فى المجتمعات. ولكنه لو حدث وهبط مجتمعاً من المجتمعات، لا يتخلف عن مجاراة المجتمعين فى لهوهم.

وبعد، فهذا أحد زعماء الأدب فى شباب مصر هذه الأيام، لا أتردد لحظة فى أن أقول وأنا أقدمه إلى القراء هذا التقديم الذى أعده فضولاً مني، أنه سيكون له شأن أى شأن فى القريب العاجل، فى بناء صرح الأدب المصرى الجديد، الذى يمكنه أن يقف أمام الأدب الأوروبى الجبار وقفة الرئبال الهصور.

وليست ببعيدة على صاحب «شاطئ الأعراف» هذه الوقفة المشرفة..!!

«ألف لام»